

١٠١

وكذلك تتغير أشخاص الحجاج موسماً بعد موسم ، وتختلف شخصياتهم من جيل إلى جيل .

والسُّمْتُ واحد ، على تفاوت الأجيال ،

والشعائر والمناسك واحدة ، على تباعد السنين والقرون . .

ويتصل الحاضر بالماضي عبر حقب ودهور ، في هذه البقاع المباركة التي تحتفظ بجوهر شخصيتها منذ عرفها التاريخ مثابة للحج وأمناً ، فلسنا نراها اليوم إلا كما رآها آباء لنا وأجداد على مر الزمان :

لبوا كما لبينا ، وطافوا مثلنا طفناً ، وسعوا كما سعينا ، ووقفوا بالمشعر الحرام وعلى عرفات كما وقفنا ، ونفروا إلى المزدلفة كما نفرنا ، ونحروا في مِنى كما نحرننا ، وباتوا بها ليلة الوقفة وليالي التشريق حيث بتنا .

والأماكن غيرها تتغير وتتبدل ، فيطمس جديدها معالم القديم ، ويُدكُّ عمرانها الحدث أطلال العتيق ، فلو أن أحداً من أهلها غاب عنها بضع عشرات من سنين ، ثم عاد إليها ، لأنكرها وأنكرته ، وأعوّزَ فيها ترجان ودليل . .

* * *

كم عرفت الدنيا بيوتاً غير هذا البيت العتيق !
كم شيدت من قبله ومن بعده ، قصور باذخة ومعابد شامخة وصروح مبردة شاهقة ا
وهذا البيت العتيق حيث هو منذ كان ، تتضاءل دونه أبهى البيوت وأفخم القصور
وأعلى الصروح !

وراء المعروف من تاريخه الديني ، دهور وأحقابٌ موهَّلة في أعماق ما قبل هذا التاريخ ، شهد الزمن فيها موضع هذا البيت ملاذاً للضارين في مفاوز القلاة ، يلتمسون لديه الأمن والراحة ، ويؤدون في حياه شعائر عبادتهم التي ارتدت في ظروف مجهولة إلى وثنية ضالة ، هجرت البيت العتيق فلم يبق منه سوى أطلال جذبت إليها « إبراهيم » فجاءها من أرض كنعان ، وترك عندها ولده إسماعيل مع أمه هاجر .
لم يجد لها ملاذاً سوى جوار البيت المحرم العتيق عندما ضاقت بها امرأته السيدة سارة وأصرت على ألا يضمها وجاريتها الولود سقف بيت واحد .

في جوار البيت العتيق أنزلها ، وانصرف عائداً إلى أرض كنعان وهو يدعو ربه :
« ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة ،